

نظرات في تاريخ الإسلام

لِلْعَلَّامَةِ دُرُوزِي مَرْحُومَةٍ بِقَلَمِ الْأَسَازِطَل كِيدَرَنِي

« واشترط على نفسي أن لا أتعرض
لذكر ما أعتمد به ، فيما أجده مخالفاً لما أعتقده
فإن التقرير غير الرد . والتفسير غير النقد ،
« نثر الدين الرازي .

(٢)

زد على ذلك ، أن الإسلام — وإن لم يلق معارضة قوية أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة —
فإن سراً مكة وطبقة الأراستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه
هذا الفوز الذي أحرزوه ، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذي أراد الموحدون
أن يبسطوا ظله عليهم .

ولقد كانت تقوم المنازعات والشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها
أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة ، وهي في حقيقتها رجوها غير ذلك
فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكة يبرر بها
غايته من الشعب .

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان ، ثالث الخلفاء ، حين تولى الخلافة بعد وفاة عمر (٦٤٤ م)
وكانت سن عثمان حيتن سبعين عاماً ، وكان حليماً لين العريكة ، ضعيف الإرادة أمام
أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بني أمية . أي أنه كان ضعيف الإرادة أمام كل
من ناصبوا محمداً العداء عشرين عاماً ، فلما أسلبوا كان في إسلامهم مجال واسع للظنون

والخذر، ولقد نالوا بفضل عثمان، أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل المسلمين خليفتهم الشيخ المسن عثمان.

ثم ولى الخلافة من بعده علي بن عيسى بن محمد، ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبت سوريا متمحمة إلى امتشاق الحسام — وعلى رأسها واليها معاوية بن أبي سفيان، وكان انتصاره حينئذ انتصار جبهة المعادين للإسلام، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم، فقد أشعلوا نيران الحرب من جديد في زمن يزيد الأول، ابن معاوية الذي ولى الخلافة من بعده. ولقد قام الحسين وهو الابن الأصغر لعلي، يطالب بالخلافة، ولكنه صرع — وهو وقتئذ القليلة التي كانت تنصره في موقعة كربلاء. (١)

ومن ثم قام عبد الله بن الزبير — وهو ابن صحابي من صحابة الرسول — إلى مكة رافعاً علم الثورة، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة، ولا يلتفت إليه استصغاراً لشأنه. ذلك أنه لم يغادر مكة إلى غيرها من البلدان فلم ير له الخليفة خطراً يستحق أن يناوئه من أجله. ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل بلا حاجة، فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى أراقة الدماء في بقاع كانت — حتى في زمن الوثنية — حرماً مقدساً لا يمس أحد بسوء.

ولكن لكل شيء حداً. فقد صبر يزيد حتى عيل صبره، فلما لم يبق في قوس الصبر منزع طلب إلى عبد الله بن الزبير — للمرة الأخيرة — أن يبايعه، فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم أنه لن يقبل من هذا التأثير طاعة حتى يوثق به بين يديه مكبلاً بالأغلال. ولما هدت نائرة الخليفة ندم على قسمه — وكان طيب السريرة —، ففكر في وسيلة يبر بها في قسمه دون أن يمس كبرياء عبد الله، ثم استقر على أن

(١) وفي ذلك يقول الكمي:

يحلتن من ماء الفرات وظله حسينا، ولم يشهر عليهم منصل
كأن حسينا والبهايل حولها لأسيا فهم ما يَحْتَلِي المتبعل !

« المترجم ».

يرسل اليه غلاماً من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها اذا شاء ، وبعث اليه يرسل يحملون معهم هدايا ثمينة ، فساروا من مكر ملكه « دمشق » حتى باغوا « مكة » ولكن عبد الله رفض — بطبعه — أن يقبل تلك الهدايا ، وعبثاً حاول الرسل أن يتوصلوا إلى اقتاعه وانزاله عن رأيه . فقد أصر « عبد الله » على عناده لأنه كان يعتقد أن كائناً من كان لن يفكر — بحال ما — أن يلجأ إلى العنف والشدة معه وهو في تلك البقاع المقدسة . وكان هذا سرطمانيته ، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل .

على أن « عبد الله » لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته ، فقد سبقه إلى ذلك ثوار « المدينة » . وكانت روح الشر مهيمنة عليهم في ذلك الحين ، فقد وقعت بينهم وبين الوالي — حينئذ — خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضي ، وأراد الوالي إزالة أسباب الخلاف — وكان من أبناء خؤلة الخليفة يزيد — ، فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة ، فلما ذهبوا ، قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة في أن يستميلهم اليه ، ولكن يزيد كان — رغم أدبه ونبله — غير مشبع بروح احترام الدين الذي كان يمثل له وهو خليفة المسلمين الأعظم فبدرت منه آراء — عن غير قصد — صدمت بعض أصول الدين التي يقدها أهل المدينة ، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشبهون بالخليفة ويدمونه عند مواطنهم متأثرين بعامل الغضب ، فقالوا لهم : « انه يشرب الخمر ويعزف على الآلات » و يصرف نهاره بين كلاب الصيد (وقد كان محمد يمقت ذلك أشد المقت) فاذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق — يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع فلما كبر أدناهم من مجلسه

وزادوا على ذلك أنه لا يصلي قط وأنه جاحد ، وعزوا إليه فوق هذه التهم التي بنوها على أساس — واه أو متين — تهماً أخرى لا أساس لها ولا وجود ، وإن كان ذكرها بما يثير في نفس خصومه من أهل المدينة حفاظ وأحقاداً بعيدة الأثر وكانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلتصق بكل أموى

ومن ثم انقلب المسجد مسرحاً عجيماً تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباع يزيد

واجتمع أهل المدينة قاطبة وهم صاخبون فشرع كل واحد منهم يتجر من شيء من ملابسه فيلقى به صائحا — :

« إني أخلع يزيد كما أخلع قبائي هذا،

أو عمامتي »

أو نعلي »

ثم طردوا كل من في المدينة من الأمويين ووقفوا عن تعيين خليفة جديد لهم فقد كان القرشيون الذين في المدينة لا يحبون أن يعترفوا بأهلها ، كما كان أهلها كذلك لا يحبون أن يعترفوا بهم

فقر رأيهم على أن يترثوا في تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد !

واستحوز عليهم عداء جنوني لا يحدوه رشد فلم يتصرفوا ، عواقب هذا الاندفاع

وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الأمبراطورية الإسلامية العظيمة كلها

ولقد حاول عبثاً أحد المدنيين — وكان قد عاش في بلاط الخليفة ، ثم أوفده

سيده إلى المدينة — أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه فقد أعماهم الغضب فأصبحوا لا يعيرون

الناصحين التفاتا ولا يصيخون إلى أية موعظة تقدم إليهم بحسن نية

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة فأرسل إليهم جيشاً عهد

بقيادته إلى « مسلم » — وكان « مسلم » أقرب إلى الوثنية منه إلى الإسلام — فأمره أن يترك

لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها ، فإذا أبوا أن يخضعوا — بعد ذلك — هاجمهم ودمر

مدينتهم تدميراً في ثلاثة أيام أخرى ، ثم ليأخذ على من فيها الموائيق بأنهم عبيد يزيد

وليقسموا على ذلك فإذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته

ولم يكذب يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أنفة من الخضوع وأعدوا

عدتهم للقاء العدو وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين (وكانت موقعة الحرة

سنة ٦٨٣ م) وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة ، وكان أهل المدينة متحمسين

بذلك فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد واعتادهم الثابت أنهم المختارون وأن

أعداءهم — من جيش سورياءهم عند الله كالوثنيين سواء بسواء ، وكانوا على يقين

من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وبارأوا بغضب من الله ، أماهم فانهم
سا لكون - بلا شك - مسالك الشهداء والأبرار

وبقى مصير الحرب معلقا في كف الأقدار زماناً طويلاً حتى كشفت الخيانة عنه ،
فقد ارتشت أسرة من المدنيين فتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيش العدو ،
فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم فجأة صيحات النصر من أفواه
السوريين ، فضاغ كل أمل لديهم في الفوز والغلبة ، وأصبحت المدينة في قبضة العدو
وصار كل هجوم عبثاً ومستحيلاً ، على أن جمهورهم لم تسكر في الخطر المحدث بها فجهم
أهل المدينة على أعدائهم فرادى وباعوا حياتهم بأعلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به !
وكان من بين القتلى سبعمائة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة ، ولم
يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبي قد حارب بعد أن نصره في حرب بدر
على المكين ، حتى شهدوا هذا اليوم المشؤم

ودخل المدينة فرسان سوريا فلما لم يجدوا مكاناً يربطون فيه خيلهم ربطوها
في مسجد المدينة بين جدث النبي وكرسيه ، أى في نفس المكان الذي طأه سماه النبي
نفسه جنة من جنان الفردوس

ثم نهبوا المدينة في ثلاثة أيام وسبوا كل من فيهم من نساء وأطفال ، ولم ينج أحد من
بقي من أهلها - فقد فرأ أكثرهم - إلا بعد أن أقسم أن يكون عبداً من عبيد يريد
و هكذا أقسموا جميعاً على أن يكون الخليفة سيدهم ومولاهم وأن يكون في حل
من التصرف فيهم بما شاء من عتق أو بيع ، كما أقسموا أن يكون له الحق في كل ما تملك
أيمانهم من نساء وأولاد وأرواح

ولما رأى أبناء مؤسسى الاسلام أنهم مضطهدون معذبون وأن بنى أمية قد
أرحقوهم إرهاباً ، لم يجدوا أمامهم وسيلة غير المهاجرة ، فهاجر الكثيرون منهم إلى
حيث انضموا إلى جيش أفريقيا ، وقد انضم أغلبهم - فيما بعد - إلى جيش اندرب في
إسبانيا .

وكان مسلمة مكلفاً أيضاً بأخضاع مكة . ولكن الموت عاقه عن تحقيق إرثته : فأخذ
« الحسين » (وهو واحد رجال جيشه) على نفسه أن يحقق ذلك . فتولى قيادة الجيش

بدأ يحاصر مكة و يقذف الكعبة بالحجارة والصخور حتى حطم عمدتها وقواعدها
ثم نجح أخيراً في إحراقها جملة. ولقى الحجر الأسود في هذه المرة أول نكبة حاقت
به لأنه لم يطق مقاومة النار فتحطم أربعة أجزاء :

على أن مكة لم يتم إخضاعها ، فقد حال دون ذلك موت يزيد و ما أعقبه
من الفوضى التي اضطرت الجيش الى رفع الحصار و الرجوع بالجيش توا الى سوريا
وبهذا استعاد «عبد الله بن الزبير» قوته واستتب لها أمر الخلافة في مكة و خارجها أيضاً
ولم يكن الأمر بين ما لبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة
«عبد الملك» : و خضعت البلاد كلها و لم تبقى إلا مكة وحدها ثائرة وفيها عبد الله بن
الزبير فلما رأى «عبد الملك» ذلك وجه إليها جيشاً بقيادة الحجاج ، فذهب الى تلك
البقاع المقدسة . وحاصر المدينة و طفق يرمي الكعبة بالصخور والحجارة ليذكها دكا
وبينما كان يقذفها بالنار ذات يوم - هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثني عشر جندياً
فرأى الجيش في ذلك عقاباً من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس . فأحجم
رجال الحجاج وكفوا عن ذلك

فاغتاض الحجاج وخلع بعض ملابسه و تقدم الى المنجنيق فأخذ يده حجر أو وضعه
فيه . ثم حرك حباله بعد ذلك وهو يقول - : « لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ما حدث
هو ما فهمتموه . ألا إنني لحبيب بطيعة هذه البلاد فقيها ولدت وقد رأيت لهذه العاصفة
أشباباً لا ينحصى لها عد ! »

و ظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر . ثم أخذت المدينة بعد أن مات عبد
الله بن الزبير (١) سنة ٩٦٢ م .

(١) مصر ع. عبد الله بن الزبير

(١٧) جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ

جمع القرشيين في الليلة التي قتل في صبيحتها فقال لهم : « ماترون ؟ » ، فقال رجل منهم :
« والله لقد قاتلنا معك حتى ماتنا مقاتلاً »

و الله ! إن صبرنا معك ما يزيد على أن نموت معك إنما هو إحدى خصلتين

إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك ، وأما أن تأذن لنا فنخرج .

فقال عبد الله :

« قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد ، فأقبله بيعته ، فقال رجل آخر :

« اكتب الى عبد الملك

فأجابه :

كنت أكتب اليه : « من عبد الله أمير المؤمنين ،

خو الله لا يقبل هذا مني أبدا

أو أكتب اليه : « لعبد الملك أمير المؤمنين . من عبد الله بن الزبير ،

خو الله لأن تقع الخضراء على الغبراء ، أحب الى من ذلك .



قال عروة أخوه :

« يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة ،

فقال له : « من هو أسوتي ،

قال « الحسن بن علي بن أبي طالب : خلع نفسه وباع معاوية ،

قالوا : فرفع رجله وضرب عروة ، حتى القاه ، ثم قال :

يا عروة ! قلبي اذن مثل قلبك ، والله لو قبلت ماتقولون ، ما عشت الا قليلا وقد

أخذت الدنيا ، وماضرة بسيف إلا مثل ضربة بسوط ، لا أقبل شيئا مما تقولون ! »

فلما أصبح دخل على بعض نسائه ، فقال :

« اصنعي لي طعاما »

فصنعت له كبدا وسناما

فأخذ منها لقمة ، فلا کہا ساعة ، ثم لم يسفها ، فرماها وقال : اسقوني لبنا

فأتى بلبن فشرب ثم قال : « صبرا ، على غسلا »

قالوا : فاغتسل ثم تحنط وتطيب

ثم تقلد سيفه ، وخرج وهو يقول .

ولا ألين بغير الحق أسأله حتى يلين لضرر الماضع الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق «وهي عيياء من الكبر، قد بلغت من
السن مائة سنة»، قالوا «فدخل عليها وسلم، فقالت ! من هذا فقال «عبد الله»، ثم قال
«ما ترين ! قد خذلتى الناس، وخذلتى أهل بيتي»، فقالت
«يا بني ! لا يلعب بك صبيان بني أمية، عش كريمة ومكر يما فقال: «إن الحجاج قد أمنى»
قالت «يا بني ! لا ترض الدنيا، فان الموت لا بد منه».

قال : «إني أخاف أن يمثل بي»
قالت : «ان الكباش اذا ذبح لا يؤلمه السلخ»
قالوا : «فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام
فهمزهم وهو يقول :

«ويل أمه فتح لو كان له رجال»
فجعل الحجاج يناديه
«قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم»
قالوا :

فجاءه حجر من حجارة المنجنيق وهو يمشى فأصاب قتلاه فسقط
فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تكي وتقول : «وا أمير المؤمنين
فاحتزوا رأسه فجاءوا به إلى الحجاج ثم بعث به إلى عبد الملك .
قالوا : وكان الحجاج قد رأى في منامه كأنه يسأل عبد الله بن الزبير فلما قص
ذلك على عبد الملك بن مروان قال له عبد الملك «أنت له فاخرج إليه»، المترجم»

اطلب كل ما محتاجه

من مكتبة

مكتبة

بالأزهر الشريف

بالقاهرة